

الرحلات الروسية الى الجزائر

بقلم : عبد العزيز بوباكير
مدير معهد التعليم المكثف للغات

الرحلات الروسية الى الجزائر

بقلم : عبد العزيز بوباكير
مدير معهد التعليم المكثف للغات

1 - ملاحظات تمهيدية

كانت الجزائر طيلة القرن التاسع عشر والعشرين مقصد ومحج العديد من الرحالة من مختلف جنسيات وبقاع العالم، وكان هؤلاء الرحالة يقصدون الجزائر بدوافع مختلفة، بعضهم حبا في الإكتشاف والبعض الآخر للتبشير، وآخرون إرضاء "لميلهم إلى الغريب". وكان من هؤلاء الرحالة أدباء وعلماء وشداد آفاق، كما كان بينهم عسكريون وجواسيس. وقد دعمت الظاهرة الإستعمارية الإستيطانية هذه الموجة من الرحلات واستخدمتها لأغراضها التوسعية .

لقد خلف أغلب من زار الجزائر كتابات في شكل وصف للرحلات ومذكرات ورسائل متفاوتة في قيمتها العلمية وأهميتها التاريخية. ورغم ذلك فإنها تشكل تراثا هاما إرتكزت عليه الدراسات الإستشراقية الخاصة بالجزائر، وساهمت في تكوين صورة الجزائر عند الأوروبيين. وهي صورة ليست، للأسف الشديد، صادقة ووفية دوما. ذلك أن أغلب ماكتبه الرحالة الأوروبيون عن الجزائر إتخذ صبغة إستعمارية مشوهة ومحرقة .

وإذا كانت الرحلات الفرنسية معروفة بحكم إحتكاك الشعبين الفرنسي والجزائري خلال الحقبة الإستعمارية، وبحكم إتصالنا المباشر باللغة والأدب الفرنسيين، وكذلك الحال بالنسبة للرحلات الألمانية بفضل الجهود العلمية التي بذلها الدكتور أبو العيد دودو¹، فإن الستار لم يرفع بعد عن الرحلات الروسية إلى الجزائر. فهذه الرحلات ما زالت مجهولة إلى اليوم تحتفظ بها مكتبة موسكو وجامعة بطرسبورغ في خزائنها. ولم يُعدّ نشرها، ولم يهتم بها المستشرقون والمؤرخون الروس أنفسهم، ناهيك عن الباحثين الجزائريين، بالرغم مما تنطوي عليه من أهمية كمصادر تاريخية .

وما لا شك فيه أن الرحلات الروسية إلى الجزائر تكتسي أهمية كبيرة خصوصا إذا ما قورنت بمثيلاتها الفرنسية والألمانية والأنجلوساكسونية في نفس الفترة. فهي تساعد

على معرفة بداية إهتمام الروس ببلادنا، وعلى التعرف على ملامح تبلور موضوع الجزائر في الإستشراق الروسي . إضافة إلى ما يمكن أن تتضمنه من معلومات وشواهد لكتابة تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر .

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب هذه الرحلات أصبحت من النوادر الببليوغرافية، إذ لم يعد نشرها منذ طبعاتها الأولى ماعدا رحلة بيوتر تشيخاتشيف التي صدرت بالروسية سنة 1975 بعد صدورهما بالفرنسية في باريس عام 1880 .

2 - الرحلات الأولى:

عرف عن الروس تعلقهم "بالشرق" الذي يشكل جزءاً من "الروح الروسية" وكان حجاجهم يولون شطر الشرق، وخاصة إلى القسطنطينية والقدس ومصر والشام. أما بلدان المغرب العربي فلم تكن تاريخياً تثير إهتماماً خاصاً لديهم .

وفضلاً عن ذلك فإن العلاقات الإقتصادية والثقافية بين روسيا وبلدان المغرب (سواء في العهد التركي أو خلال الحقبة الإستعمارية) لم تكن متطورة بحيث تدفع بأعداد كبيرة من الرحالة الروس نحو هذه المنطقة، ولم تعرف أيضاً أطماع توسعية لروسيا في المغرب العربي. ورغم ذلك فقد سجل التاريخ رحلات معروفة قام بها علماء وعسكريون روس إلى المغرب العربي، وخاصة إلى الجزائر. وظهر موضوع الجزائر في التأليف الروسية، ولم يكن يسمع عن الجزائر بالتواتر والسماع فقط. فما الذي دفع ببعض الروس إلى زيارة الجزائر وإكتشافها ؟ هل قادتهم إلى بلادنا الصدفة، أم فضول الإكتشاف، أم أهداف أخرى خفية ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال إستعراض أهم الرحلات الروسية إلى الجزائر من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين .

أول رحلة روسية معروفة إلى الجزائر هي رحلة السائح المجهول. وهي ليست قائمة بذاتها، وإنما تندرج ضمن "وصف الإمبراطورية التركية" لمؤلف روسي وقع في أسر الأتراك في النصف الثاني من القرن السابع عشر. والعنوان الأصلي لهذه الرحلة هو "كتاب عن الأسرار والخفايا، كتبته أنا الأسير عندما كنت في الأسر". ولايستبعد المستشرق بوريس دانتسبيغ أن يكون هذا الأسير هو إبن الإقطاعي فيودور دوخين "وهو في الأصل الجندي الفارس" من مدينة يلتس وقع في أسر تاتار القرم ثم بيع فيما بعد في تركيا، وقد خدم في الجيش التركي وعاد إلى روسيا في سنة 1674².

- وقد إرتحل السائح المجهول في ربيع الإمبراطورية العثمانية مدة خمس سنوات وشهرين وعشرين يوما. ووصف رحلته الطويلة عبر أشهر المدن العربية آنذاك وبعض مدن أوروبا وآسيا التي كانت خاضعة للحكم التركي. ومن بين المدن التي زارها السائح المجهول مدينة بون (إسم خليج وميناء في الجزائر على البحر الأبيض المتوسط) أي عناية حاليا. وإهتم السائح المجهول بالموقع الجغرافي وبنمط البناء وعادات سكانها. ويقول المستعرب إغنائي كراتشوفسكي عن هذه الرحلة: "...أنه كان لتجول الأسير في ذلك الوقت في أقاصي الأقاليم الواسعة الأثر الكبير في مشاهدة مناطق كثيرة من البلدان العربية ... وأنه يذكر عددا كبيرا من المدن العربية، يكاد لا يستطيع أي حاج أن يذكره ..."³

وقد طبعت هذه الرحلة في سان بطرسبورغ عام 1890 بعنوان "وصف الإمبراطورية التركية، ألّفه الروسي الذي وقع في أسر الترك في النصف الثاني من القرن السابع عشر".

أما الرحلة الثانية فتعود إلى سنة 1777 حين زار القبطان البحري ك. كوكوفتسف مدينة بون وضواحيها (عناية) وصدرت إنطباعات هذه الرحلة في سان بطرسبورغ عام 1787 بعنوان "أخبار موثوقة عن الجزائر، عن العادات والتقاليد لشعب ذلك المكان، وعن حالة الحكومة ومدخولات المناطق وعن وضع الشواطئ البربرية (شواطئ شمالي إفريقيا للبحر الأبيض المتوسط) وعن النباتات وما شابهها، مع رسوم حقيقية دقيقة. «ويتحدث المؤلف بإسهاب عن كل المواضيع المذكورة في عنوان الرحلة الطويل، ويقارن بين نمط الحياة في تونس التي زارها قبل عام وبين الجزائر بقوله: «إن طراز حياة السكان هنا يشبه ما في تونس، غير أن الأخيرة تعاني أكثر من نير الحكومة القاسية، لذلك يكون الفقر والجهل فيها أشد، والمنازل هنا مبنية في صف واحد لا تتميز بأية زخرفة أو تزويق، يعيشون في الغالب على الخبز وحده، والخضار والنباتات الأخرى، أما الملابس فإنهم أفقر من التونسيين...»⁴.

كان كوكوفتسف ضابطا في البحرية الروسية، وشارك في محاربة الأسطول التركي في البحر الأبيض المتوسط. وقد حددت العداوة التاريخية بين روسيا وتركيا إلى درجة كبيرة، موقف كوكوفتسف من الأتراك، وأثرت بشكل واضح على انطباعاته عن رحلته إلى الجزائر. فهو يرد بؤس وفقر الأماكن التي تعرف عليها في رحلته إلى «الأمية والحكم التركي المضطرب الذي لانظام فيه ولايساعد على نشر العلوم والفنون»⁵.

ويدين كوكوفتسف في كتابه الحكم الأتراك وأطماعهم وبطشهم. غير أن رحلة كوكوفتسف، ورغم تقييمها السلبي للحكم التركي، تنطوي على معلومات جوهرية لمعرفة أحوال الجزائر في القرن الثامن عشر. ويجمع المستشرقون والمؤرخون الروس على أهمية إسهام كوكوفتسف في التمهيد للدراسات الإستشراقية في روسيا. فقد اعتبر كوسفين الرحالة كوكوفتسف أول روسي مختص في الدراسات الإفريقية، وقال عن وصفه لبلدان شمالي إفريقيا أنه « غني في مضمونه ومعبر إلى حد كبير ولذلك يستطيع بحق أن يحتل المكان الأول في الدراسات الإفريقية في تاريخ العلم الروسي »⁶.

وأشار بوريس دانتسيف، صاحب التأليف العديدة في تاريخ الجزائر، إلى ثقافة كوكوفتسف الواسعة وعمق ملاحظاته عن الحياة وواقع البلدان التي زارها. وثمن الأكاديمي إغناتي كراتشوفسكي تلميذا عاليا مؤلفات كوكوفتسف مشيرا إلى طابعها المصدري الهام لدراسة الجزائر وتونس في ذلك العصر: « لقد حازت في عصرنا هذا على تقييم عال من لدن الاختصاصيين في تاريخ شمالي إفريقيا في العلم الفرنسي الذي لم يكن قد تعرف عليها إلا في الوقت الحاضر »⁷.

إن رحلتي السائح المجهول وكوكوفتسف إلى الجزائر تتضمنان معلومات قيمة عن أحوال البلد الاجتماعية وعن نمط حياة السكان وعن الجغرافية الطبيعية وعن نظام الحكم فيها آنذاك. لكنهما لا تمثلان اتجاهات قانما بذاته في وصف الرحلات أو أدب الرحلة. ذلك أنهما تمنا بمحض الصدفة أو إضرارا. فالسائح المجهول كان أسيرا لدى الأتراك وكوكوفتسف يعترف بنفسه أنه: « ... قرر أن يستغل وقت الفراغ القليل الذي كنت أملكه أثناء خدمتي خلال الحرب الروسية المجيدة ضد الترك لأجمع الأخبار والمعلومات عن جميع الأماكن التي كنت قد شاهدها وعشت فيها. وقد سجلت كل ما كان ضروريا »⁸.

3- رحلات القرن التاسع عشر

إتخذت الرحلات الروسية إلى الجزائر في القرن التاسع طابعا منظما وهادفا. فإذا كانت الرحلات الأولى فردية أو إضرارية، فإن الأمر يختلف بالنسبة للرحالين الروس في القرن التاسع عشر. فهؤلاء جاءوا إلي الجزائر إما موفدين من قبل الحكومة الروسية

للإطلاع على الأوضاع في البلد والتعرف على طرق الإستعمار وأساليبه، وإما في إطار البعثات التي كانت تنظمها الجمعية الجغرافية الروسية بهدف البحث والإكتشاف العلميين. وكان الرحالة خلال هذه الفترة يضعون لأنفسهم أهدافا محددة سنأتي على ذكرها لاحقا. وأغلب الرحالة الروس الذين زاروا الجزائر في القرن التاسع عشر أرسلتهم الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية. بل أنهم كانوا أعضاء فيها مثل: إدوارد إيخنفالد وأرتيمي رافالوفيتش وبيوتر تشيخاتشف والكسندرييلتسيف.

وقد تأسست الجمعية الجغرافية للإمبراطورية الروسية سنة 1845. وكانت أهدافها متمثلة في دراسة الأقاليم المجاورة لروسيا، وخاصة آسيا الوسطى والقوقاز وآسيا الصغرى والشرق الأوسط. وكانت هذه الجمعية تقوم بتمويل وتنظيم رحلات العلماء والدراسين وتطبع أعمالهم ضمن نشاطها العلمي. وقد نما دور الجمعية مع تزايد الأطماع التوسعية الروسية في القوقاز وآسيا الوسطى.

- رحلة إيخنفالد

زار الجزائر عام 1847 عالم الطبيعيات الروسي المعروف إدوارد إيخنفالد، وأصدر في العام نفسه في سان بطرسبورغ عن هذه الرحلة كتاباً بعنوان «نبذات عن رحلة إلى الجزائر». وهذا الكتاب يعكس عموماً «إهتمامات المؤلف الأساسية كعالم طبيعيات»⁹. إلا أن ذلك لن يمنع إيخنفالد من الحديث عن الإستعمار، وعن وضعية الجزائر آنذاك. ويشير الدكتور جابر أبو جابر إلى أن «احتلال الجزائر لا يثير لدى إيخنفالد أي احتجاج أو إستياء»¹⁰ إلا أنه في الوقت نفسه يصف الأمير عبد القادر الجزائري «بقائد العرب الجسور». ويتحدث إيخنفالد عن مظاهر الإستعمار و«نشاط المحتلين الفرنسيين المتزايد في بناء الطرقات»، فرغم ماتكلفه هذه المشاريع فإن «فرنسا تعوضها بتأمينها لسلامة انتقال وتحرك جيوشها في مختلف الإتجاهات ويلعب دوراً هاماً في توسيع التجارة»¹¹

ويتحدث إيخنفالد في كتابه عن أساليب القمع الإستعماري، مثل المسؤولية الجماعية، و«إستخدام الأهالي العزل كرهائن، والمكاتب العربية التي تأسست عام 1833، وكانت أجهزة وسيطة بين القيادة العسكرية الفرنسية والزعماء المحليين. ويقول إيخنفالد أن «العرب التابعين لهذا المكتب هم أناس معروفون للأوروبيين والسكان المحليين بنزاهتهم، ومجبرون على مرافقة الفرنسيين والرحالة الآخرين عبر جبال الأطلس

وعلى ضمان سلامتهم. ويجري عادة إختيار الرجال التابعين للمكتب المذكور من بين الشيوخ المعروفين لدى كافة القبائل المجاورة والذين يتمتعون باحترامها. ولذلك فإن التنقل بصحبته مأمون جدا، ولاسيما وأنهم يتركون في المدينة نساءهم وأطفالهم الذين يمكنهم أن يتعرضوا للأذى وتحملوا ذنب رجالهم وآبائهم في حال قيام هؤلاء بأي عمل من شأنه أن يفسر بمثابة خيانة».

وتتضمن رحلة إخنفالدي مقارنة مثيرة للإهتمام بين الأمير عبد القادر والإمام محمد عبد القادر شامل، زعيم داغستان الذي كان رافعا آنذاك لواء المقاومة ضد الجيوش القيصرية الروسية في شمال القفقاس. كما يقارن إخنفالدي بين ظروف الحرب في القفقاس ومقاومة الجزائريين للإحتلال الفرنسي وبين طبيعة وتضاريس القفقاس والجزائر. ويؤكد الدكتور جابر أبو جابر: « أن العمليات الحربية في الجزائر كانت تلتفت إهتمام الحكومة القيصرية من هذا الجانب بالذات».¹²

- رحلة رافالوفيتش

قام الطبيب ارتيمي رافالوفيتش برحلة عبر عدة بلدان عربية من بينها الجزائر. وكان رافالوفيتش مدرسا للطب الشرعي بمدينة اوديسا. وكان مختصا في دراسة الطاعون الذي كان متفشيا آنذاك في العديد من مناطق العالم. وقد اوفدته الجمعية الجغرافية الروسية إلى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا على رأس بعثة علمية. وخلال رحلته التي دامت ثلاث سنوات تعلم اللغتين التركية والعربية واللهجة المصرية. وبعد إنتهاء رحلته نشر رافالوفيتش كتابا بعنوان: « رحلة إلى مصر السفلى والمناطق الداخلية - الدلتا » (بطرسبورغ عام 1850). وهذا الكتاب ثمنه الأكاديمي كراتشوفسكي تلميذا عالما لما احتواه من معلومات ولتفرده وسط الأدبيات التي تناولت الموضوع نفسه خلال ذلك العصر.

وقد أولى رافالوفيتش عناية فائقة لدراسة التضاريس الطبيعية والمناخ والإقتصاد والمسائل العرقية. ونشر جزءا من انطباعاته وملاحظاته في « مجلة وزارة الداخلية » بعنوان : مذكرات طبيب روسي» وترجم العديد من هذه المقالات إلى بعض اللغات الأوروبية الأخرى.

وتحدث رافالوفيتش في هذا المذكرات عن رحلته إلى الجزائر واصفا الأوضاع الاجتماعية في البلد، ومشيرا إلى السياسة الإستعمارية وما ترتب عنها من نتائج وخيمة بالنسبة للسكان الأصليين: «إن العنصر الإسلامي المحلي ينحصر، بصورة تدريجية وملحوظة، في جميع المدن والمناطق الساحلية، وذلك نظرا لسيطرة الأوروبيين على كافة شبكات التجارة والصناعة التي ليس بوسع السكان العرب مزاحمتها، وما نجم عن ذلك من إرتفاع في أسعار معظم المواد والحاجيات الأساسية، ومن تأثير فظيع مهلك للنساء والخلاعة والرذائل المختلفة التي جاء بها المحتلون "المتحضرين" وعملوا على نشرها في أوساط السكان الأصليين. ومما لاشك فيه أن مستودعات النبيذ والحانات وبيوت الدعارة هي أكثر المؤسسات المدنية في الجزائر».

إن الطريقة التي إتبعها رافالوفيتش في دراسة أحوال مصر والجزائر وغيرها من البلدان التي زارها تختلف جذريا عن أسلوب الرحالة الآخرين. وهو يعتبر أن الطرق التي إتبعها السياح الغربيون «ليست بالأسلوب الصحيح» لدراسة أحوال البلاد التي يزورونها. أما هو فقد سلك شخصا طريقة القيام «بتصوير غير متحيز وموضوعي قدر الإمكان للوضع». وقد ساعده على ذلك معرفته الجيدة للغة العربية.¹³

رحلة كورباتكين

تعتبر رحلة الكسندر كورباتكين من أهم الرحلات الروسية إلى الجزائر وأكثرها إثارة للإهتمام. ويعود ذلك بالدرجة الأولى، إلى شخصية صاحبها وإلى غنى رحلته بالمعلومات التاريخية الدقيقة عن الجزائر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كان الكسندر كورباتكين (1848 - 1925) جنرالا روسيا في سلاح المشاة (1901) ثم تقلد منصب وزير الحربية في الحكومة القيصرية (1898 - 1904) وخلال الحرب الروسية - اليابانية قاد الجيوش الروسية في منشوريا وهزم في لياويان وموكدين. كما قاد الجيش الروسي في الجبهة الشمالية خلال الحرب العالمية الأولى (1916). وبعد ذلك أصبح حاكما عاما لتركستان، وقام بقمع الإنتفاضات العديدة التي إندلعت في آسيا الوسطى. وقد استفاد من تجربته العسكرية الطويلة ليضع عدة مؤلفات هامة حول التاريخ العسكري والجغرافية الحربية.

ولكورباتكين تجربة ثرية في الأسفار والرحلات. فبعد إنهاء تكوينه العسكري أوفدته الأكاديمية العسكرية ببطرسبورغ في مهمة إلى ألمانيا وفرنسا. وبعدها قام برحلة طويلة إلى الجزائر حيث أمضى فيها أكثر من عام (1874 - 1875).

وكان كورباتكين يدون بانتظام ودقة انطباعاته ومشاهداته عن هذه الرحلة، وبعد عودته إلى روسيا نشرها في شكل رسائل في بعض المجلات العسكرية. كما وضع إلكسندر كورباتكين كتابا ألفه كدراسة حول الجزائر. وصدر هذا الكتاب في سان بطرسبورغ عام 1877 بعنوان «الجزائر». ويرى المستعرب روبرت لاتدا في تحليله للمصادر التاريخية لتلك الحقبة أن كتاب «الجزائر» لكورباتكين هو لبنة هامة في بداية إهتمام الروس بالقضايا الجزائرية قبل الثورة الشيوعية.¹⁴

يسلط كتاب «الجزائر» الأضواء على «جملة من القضايا الاقتصادية والجغرافية والأثنوغرافية للبلاد، كما يرسم لوحة قائمة لأعمال المستعمرين الفرنسيين فيه»¹⁵. ويلاحظ كورباتكين أن «الهدف من الوجود الفرنسي هو جعل الجزائر جزءا من فرنسا. وأن وسيلة بلوغ ذلك هي الإستعمار». وقد صادفت رحلة كورباتكين فترة سياسة الإدماج السريعة في عهد الحاكم العام سانسي، وما ترتب عنها من نهب لأراضي الفلاحين وإفقارهم. وأشار كورباتكين إلى طابع سياسة المستعمر بشأن الأراضي قائلا: «إن الحكومة تهتم بتسهيل إمتلاك الفرنسيين للأراضي وتضع في الوقت نفسه العراقيل أمام انتقالها إلى الأهالي»¹⁶

وأفرد كورباتكين الفصل الأول من كتابه للمحة عسكرية - إستراتيجية عن الجزائر مذكرا بأهم فترات تاريخها إلى غاية 1830. أما الفصل الثاني فقد خصصه للمقاومة التي تزعمها الأمير عبد القادر وانتفاضة المقراني في 1871 والنظام الذي اعتمده الحاكم سانسي لإدماج الجزائر. وتناول كورباتكين في باقي أجزاء كتابه التركيبة السكانية للجزائر (السكان الأصليين والدخلاء الأوروبيون) وكذلك التقسيم الإداري في البلاد وتطور الصناعة وطرق المواصلات والتجارية الداخلية والخارجية.

قسم كورباتكين السكان «الأهالي» إلى «أهالي الشريط الساحلي والجبلي (الحضر)، وجماعة القبائل الذين يقطنون جبال الأطلسي والبدو الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى آخر في مختلف مناطق الصحراء الكبرى».¹⁷

ويفسر الكسندر كورباتكين نجاح الفرنسيين في احتلال الجزائر باستغلال فرنسا للإنقسامات والنزاعات القبلية والعشائرية الموجودة بين مختلف فئات السكان وإذكائها. ويشير كورباتكين في هذه النقطة، بالذات إلى أن جهود الأمير عبد القادر التي تهدف إلى جمع شمل الجزائريين تحت راية الإسلام والجهاد ضد الغزاة الأجانب.

غير أن كورباتكين يردد في كتابه نفس التحليل الذي يقدمه غلاة الإستعمار بشأن البواعث الكامنة وراء احتلال فرنسا للجزائر. ويعتبر الدكتور جابر أبو جابر أن كورباتكين ساذج حين يقول أن التوسع الإستعماري مشروع. «إن عجز كورباتكين عن تفسير الأسباب الحقيقية للإستعمار جعله يقبل الطرح القائل: «أن الأسباب التي دفعت فرنسا إلى هذا العمل كانت عديدة ومبررة. وأهمها مقتل العديد من الرعايا الفرنسيين بإيعاز من الداي حسين وعدم إحترام الجزائر للإتفاقيات التجارية. زد على ذلك، أن الدول البحرية الأخرى وخاصة إنجلترا لم يكن لديها مانع في الإستيلاء على مدينة الجزائر».

نشير في الختام إلى أن إلكسندر كورباتكين شارك خلال رحلته إلى الجزائر في حملة عسكرية ضخمة موجهة إلى الصحراء الكبرى كان الغرض منها التغلغل إلى الداخل والتعرف على الأراضي الصحراوية وتعزيز السيطرة الفرنسية فيها وضبط عملية جمع الضرائب على النخيل. وما لاشك فيه أن مشاركته في هذه الحملة وعلاقاته بالقيادة العسكرية الفرنسية حددا إلى درجة كبيرة بعض الآراء والأحكام الخاطئة التي وردت في كتابه «الجزائر».

- رحلة تشيخاتشف

من الأسماء اللامعة والشخصيات العالمية المرموقة التي زارت الجزائر في القرن التاسع عشر بيوتر الكسندروفيتش تشيخاتشف. وكان هذا العالم الرحالة عضوا شرفيا في أكاديمية العلوم في بطرسبورغ (1876) واشتهر بالدراسة المنهجية لمنطقة أسبا الصغرى وألتاي. وتحمل إلى الآن إحدى السلاسل الجبلية في ألتاي إسمه.

- لقد إشتهر هذا العالم في الخارج أكثر مما إشتهر في بلده روسيا. وسبب ذلك هو أن تشيخاتشف قضى جزءا كبيرا من حياته خارج الحدود روسيا (كملحق بسفارة روسيا في القسطنطينية، وكسائح) ويرجع أيضا إلى كون تشيخاتشف وضع مؤلفاته

العلمية باللغتين الألمانية والفرنسية. وهو ما دفع الأكاديمي بارتولد إلى القول «أن نشاط هذا العالم مرتبط، بشكل أوثق بالمؤلفات العلمية الأوروبية الغربية منه بالروسية»¹⁸

غير أن بوريس دانتسيغ وغيره من المؤرخين يدافعون عن روسية تشيخاتشف، الذي ظل روسيا في اهتماماته وأعماله، والذي يعتبر ممثلا لامعا للعقلية والموهبة الروسية بين علماء العالم وأوروبا الغربية.

كان تشيخاتشف عالما مختصا في الجغرافيا والجيولوجيا. كما كان شغوبا بالشرق وعوامله السحرية. وقد زارتشيخاتشف العديد من البلدان العربية منها مصر وفلسطين وسوريا وليبيا وتونس والجزائر. والتقى محمد علي الذي أحسن ضيافته ومنحه هدايا ثمينه.

ومما يدل على تعلق هذه الشخصية بأبحاثها العلمية وشغفها بها هو أنه تخلى عن الخدمة في منصبه الدبلوماسي سنة 1844 وباع قطعة أرض ورثها عن أمه في مقاطعة ساراتوف لينصرف كلياً إلى رحلاته عبر العالم وتنقيباته العلمية خاصة في تركيا وألتاي. وبالإضافة إلى تخصصه العلمي فإن تشيخاتشف معروف بسعة اهتمامه. فهو لا يكاد في وصف رحلاته يترك مسألة إلا تطرق إليها بالتعليق والشرح. وحتى قضايا التجارة والصناعة والمال والمسائل العسكرية والسياسية تجدها في صلب اهتمامات تشيخاتشف.

قام تشيخاتشف برحلة إلى الجزائر وتونس عام 1877. وكان عمره آنذاك 69 سنة. وبعد هذه الرحلة نشر كتاباً في شكل رسائل موجهة إلى صديقه ميشيل شوفالييه. وقد نشر هذا الكتاب بالفرنسية في الأصل عام 1880 بباريس ولم يترجم إلى الروسية إلا عام 1975.

Espagne, Algerie et tunisie. Lettres a Michel Chevalier

Par P.TCHICHAICHEF, paris 1880.

يتحدث تشيخاتشف في الأجزاء الخاصة بالجزائر عن جغرافيا البلد وطبيعته الجيولوجية. ويتطرق أيضاً إلى الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، دون أن ينسى الحديث عن الظاهرة الإستعمارية التي كانت تعيش أثناء زيارة تشيخاتشف للجزائر، أزمة خانقة مست على وجه الخصوص، صناعة التبغ والكروم.

يتضمن كتاب تشيخاتشف معلومات قيمة ونادرة عن الجزائر في فترة زيارته لها. وهو مكتوب بأسلوب بديع، إلا أنه يتصف، حسب تقييم بوريس، دانتسيغ «بالسطحية... ولايشكل دراسة مستقلة، ويختلف بشكل جوهري من هذه الناحية عن الأعمال الأخرى التي أنتجها عن آسيا الصغرى»¹⁹.

وتجدر الإشارة في الأخير إلى رحلة أخرى من رحلات القرن التاسع عشر هي رحلة الطبيب الروسي إلكسندر ييليتسف الذي زار في الفترة ما بين 1881 و 1894 عدة بلدان عربية من بينها الجزائر. وترك ييليتس تآليف عديدة نشر بعضها في مجلة «أخبار الجمعية الجغرافية الروسية». وأدرج بعضها الآخر في كتابه الضخم «في أرجاء المعمورة».

4. رحلات القرن العشرين

شهد القرن العشرين تدفق موجة كبيرة من الرحالة الروس إلى البلدان العربية. وأشهر رحلتين إلى المنطقة العربية في هذه الفترة هما: رحلة إغناتي كراتشوفسكي ورحلة إيفان بونين. ففي سنوات 1908/1910 أقام المستعرب كراتشوفسكي بالشام ومصر، وضمن إنطباعاته عن هذه الإقامة في كتابه المشهور «بين المخطوطات العربية».

أما الكاتب إيفان بونين (1870-1953) الحائز على جائزة نوبل للآداب، سنة 1933، فقد قام برحلة طويلة عبر المنطقة العربية بين 1907 و1911 قادته إلى سوريا، لبنان، فلسطين، مصر، تونس والجزائر.

وتشكل ملاحظات وإنطباعات إيفان بونين عن رحلته إلى البلدان العربية موضوعا مثيرا للإهتمام حول الشرق وعوالمه السحرية، خاصة إذا عرفنا أن هذا الكاتب كان مهتما بالقرآن وبالأساطير العربية وبتاريخ الإسلام. وقد ترك إيفان بونين العديد من القصائد والقصص الرائعة التي استوحى مواضيعها من رحلته المذكورة. أما زيارة بونين إلى الجزائر فإننا نفتقد إلى معلومات دقيقة عنها، ولم تصلنا عن رحلته إلى الجزائر سوى قصة عنوانها «الإبن» كتبت سنة 1916. وهذه القصة لا تشكل فيها الجزائر موضوعا رئيسيا، وإنما هي خلفية ومسرح لأحداث قصة حب تعيش بين السيدة مارو وشاب فرنسي ينتهي نهاية مأساوية. وتدور أحداث القصة في مدينة قسنطينة التي

يقول عنها إيفان بونين:

«... قسنطينة التي اشتهرت بجمالها في كل العالم. هذه القلعة العربية العريقة تقع على صخور منحدر. وهي الآن مدينة فرنسية...»²⁰

في النصف الثاني من القرن العشرين غما، بشكل مطرد، إهتمام الإستشراق الروسي بالقضايا الجزائرية. وقد تدعم هذا الإهتمام بعد نيل الجزائر إستقلالها عام 1962. وتطورت العلاقات الجزائرية - السوفياتية في مختلف المجالات. ولعبت الهيئات الرسمية دورا كبيرا في دعم الصلات الثقافية بين البلدين. وقام اتحاد الكتاب في كلا البلدين وكذلك جمعية الصداقة الجزائرية - السوفياتية بتنظيم العديد من الرحلات شارك فيها كتاب وعلماء وصحفيون إلخ...

واتخذت الرحلات الروسية إلى الجزائر طابعا منظما وهادفا. وخلف هؤلاء الرحالة كتابات عن الجزائر متفاوتة من حيث القيمة الوثائقية والدقة العلمية. وأغلب هذه الكتابات نشر في جرائد ومجلات متخصصة، أما الكتابات التي ينطبق عليها وصف أدب الرحلة بحصر المعنى، والتي صدرت في كتب مستقلة، فهما رحلة فاسيلي سيفيظوف، ورحلة روبرت لاندا. تحمل رحلة فاسيلس سيفيظوف عنوان «الجزائر اليوم»²¹. وقد صدرت سنة 1981 عن دار النشر المشهورة ناؤوقا. وهي تمثل مشاهدات وإنطباعات صاحبها عن إقامته في الجزائر ورحلته عبر مدنها ومناطقها المختلفة. وقد استفاد سيفيظوف من مهنته كأستاذ للإقتصاد السياسي بمعهد البترول في بومرداس للتعرف على الواقع الجزائري المتحول في الثمانينات وربط علاقات وطيدة بالجزائريين ومحاورتهم حول اختيار النموذج التنموي والإشراكية والدين وغيرها من القضايا التي كانت تثير إهتمام الجزائريين منذ الإستقلال، وخاصة الإصلاح الزراعي والتصنيع والثورة الثقافية. أما القسم الثاني فهو عبارة عن وصف لرحلة المؤلف عبر بعض المدن والمناطق الجزائرية.

وتتضمن هذه الرحلة 12 فصلا هي: إنطباعات أولى، موسمان في الجزائر، جوانب الثورة الثقافية، من البايليك إلى القطاع المسير ذاتيا، القطاع التقليدي، الثورة الزراعية في التطبيق، الطموحات الصناعية للجزائر، قسنطينة عاصمة الشرق، خمسة أيام في الصحراء، في بلاد ميزاب، الغرب الجزائري، الحياة تتغير. وقد صدر المؤلف كل فصل من فصول رحلته بمقاطع شعرية لشعراء جزائريين معبرين بالفرنسية.

وآخر ماصدر من الرحلات الروسية إلى الجزائر رحلة روبرت لاندا «من آثار قرطاج إلى قمم الأطلس» 1991. ويمثل هذا الكتاب خلاصة رحلات هذا المستشرق المعروف إلى بلاد المغرب، وتأملاته في ماضي وحاضر هذه المنطقة وتجدر الإشارة إلى أن روبرت لاندا زار الجزائر سبع مرات. وكانت آخر زيارته سنة 1984.

المراجع

1. أنظر أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان، مذكرات بفايفر وغيرها.
2. دانتسيغ ب.م الرحالة الروس في الشرق الأوسط. دار الرشيد للنشر. بغداد. 1981. ص 63
3. كراتشوفسكي إ.ي. مقالات في تاريخ الإستعرا ب الروسي. موسكو/ لينينغراد. 1950 ص. 19
4. نقلا عن دانتسيغ. المرجع السابق. ص. 127
5. المرجع نفسه. ص. 126
6. المرجع نفسه. ص. 126
7. كراتشوفسكي. المرجع السابق. ص. 57/56
8. نقلا عن دانتسيغ. المرجع السابق. ص. 125
9. أبوجابر جابر. الرحالة الروس في البلدان العربية في القرن التاسع عشر. الفكر الديمقراطي. ع. 8. خريف 1989. ص. 216
10. المرجع نفسه. ص. 216
11. المرجع نفسه. ص. 216
12. المرجع نفسه. ص. 217
13. المرجع نفسه. ص. 216
14. لاندا روبرت. كفاح الشعب الجزائري ضد الإستعمار الأوروبي. موسكو سنة 1976 ص. 12
15. أبو جابر جابر، المرجع السابق. ص. 221

- 16- دياكوف ن. حركة الفتيان الجزائريين. موسكو. 1985. ترجمة: عبد العزيز بويكير (كتاب مسلسل. جريدة «السلام» 1991)
- 17- أبو جابر جابر. المرجع السابق. ص. 221
- 18- دانتسيغ. المرجع السابق. ص. 208
- 19- المرجع السابق. ص. 222
- 20- إيفان بونين. الأعمال الكاملة. موسكو. 1967/1965
- 21- أنظر: سيفظلون فاسيلي. الجزائر اليوم. موسكو. 1981